القوى؛ وهاكم هي الوسائل.

وقد طرح احد الصهيونيين الذين ادركوا وجود العربي الحقيقي السؤال التالي في احد المؤتمرات الصهيونية: «هل تريد الحركة الصهيونية الحرب مع العرب ام لا ؟»[١٧]. ولعل طرح السؤال على هذا النحو يلقي كثيراً من الضوء على القضية موضع البحث: فهل المسألة «ارادة» و «رغبة»، ام انها مسألة بنية فكرية تحوي داخلها الحد الاقصى من العنف ؟ وحينما تأخذ هذه البنية شكلاً مؤسسياً تسانده القوة، فهل يمكن لارادة الافراد آنذاك ان تتحكم فيها ام انها تتخطى تلك الارادة وتصبح لها دينامية تدوس كل من يقف في طريقها ؟

ويمكن لوايزمان ان يساعدنا في الاجابة عن هذا السؤال، فهو كان يدرك، تماماً، ان الصراع موضوعي، له بنية مستقلة عن ارادة الافراد، وانه لو تم تعديل الرؤية الصهيونية التي تحاول تغييب العربي، بحيث يمكن لهذا العربي تحقيق وجوده بشكل ما، ولنقل داخل اطار حكومة ديمقراطية، فان لمثل هذا الوضع عواقبه الوخيمة؛ اذ انه سيؤدي الى «سيطرةالعرب على الامور». فهذه الحكومة ستتحكم في الهجرة والارض والتشريع ـ وبذا سيحقق الصهيونيون السلام ـ ولكنه «سلام المقابر»[١٨]. والصهيونيون، شأنهم شأن كل من في موقفهم، كانوا لا يبحثون عن سلام المقابر لانفسهم وانما للآخرين. ولذا لا بد من اسقاط العربي الحقيقي، واذا فرضت نفسه على وعي الصهيونية، فلا بد من تهميشه وتغييبه. وان طفا هذا العربي، مرة اخرى، على سطح الوعي، فان ردة الفعل لابد وان تكون مزيداً من التطرف في مواجهة الخطر الحقيقي من العربي الحقيقي؛ ولذا، فالاتفاق الذي يتحدث عنه جابوتينسكي، ثم بن ـ غوريون وشاريت ووايزمان، مع العربي الحقيقي، انما هو اتفاق مع طرف آخر تم تغييبه او ترويضه من طريق القوة والحائط الحديدي؛ ولذا فهو يقنع بالبقاء حسب الشروط التي يفرضها تحيز الآخر وادراكه. وهذه رؤية ولا شك واقعية؛ اذ كيف يمكن ان نتوقع من العرب ان يرضخوا طواعية لرؤية تلغي وجودهم ؟

الاستجابة العربية

وهذا ما ادركه العرب «المتخلفون» المغيبون منذ البداية. فعلى الرغم من كل محاولات الصهيونيين المعلنة عن الحوار والتفاوض والاخوة العربية ـ اليهودية والاخذ بيد العرب، كان العرب يعرفون ان الصهيونيين قد اتوا تحت راية الاستعمار البريطاني وبمساعدة جيوشه وبوارجه، وان وعد بلفور قد وعدهم بفلسطين، وانه اشار، بشكل عابر، الى حقوق «الجماعات غير اليهودية»، اي ان الصياغة اللفظية ذاتها قد قامت بتهميشهم وتغييبهم على مستوى المخطط، ولم يبق سوى التنفيذ والممارسة. ولم يكن العرب غافلين عن المفاهيم الصهيونية، مثل العمل العبري، او عن المؤسسات الصهيونية، مثل الكيبوتس والهستدروت والهاغاناه، التي تستبعدهم وتستعبدهم وتغيبهم. وفي علاقاتهم اليومية مع مؤسسات ادارة الانتداب، كانوا يعرفون ان بوابات وطنهم قد فتحت على مصراعيها ليهود الغرب ليستوطنوا فيه، كما كانوا يدركون انه، بغض النظر عن نوايا بعض الصهيونيين الطيبة تجاه العربي الحقيقي (مهما خلصت النية) وبغض النظر عن مدى جديتهم في دعاويهم (مهما بلغت درجة الجدية)، فان الواقع الذي كان آخذاً في التشكل كان واقعاً صراعياً؛ فالصهيونيون كانوا يهدفون، دائماً، الى زيادة عدد اليهود في فلسطين والى اقامة كيان اقتصادي ـ اجتماعي (عسكري) منفصل، وفي نهاية الامر مهيمن.

وقد كتب المؤلف الفلسطيني العربي، نجيب عازوري، والذي كان اول من ادرك حقيقة ما يحدث، «ان الصراع سيستمر الى ان يسود طرف على الآخر»[١٩]. وهذا الرأي ليس رأياً متشائماً ينكر مثاليات